المقدمة

رقصة المحتدمين:

في مطلع شهر يناير 2001م، كان آلن غرينسان رئيس المصرف الفيدرالي الأمريكي يدشن أول خفض لنسب إيجار النقد لدفع النمو الراكد والحيلولة دون الكساد، فإذا بمؤشر الأسعار التكنولوجية (ناسداك) يتصاعد فجأة بأكثر من عشرة بالمائة بعد أشهر من الانخفاض المستمر، وقد قوبل هذا التحسن المستمر باحتفالات حارة في بورصة نيويورك وبلغ التأثير مداه. ذلك أن الكيميائي الساحر قد حقق معجزة قلب التباطؤ إلى إقلاع سريع.

وحتى لو كانت فترة النصر قصيرة، إلا أنه لم يحدث أبدا أن كان مشهد من مشاهد البورصة أقرب لطقس ديني.

في الحطام العام للمعتقدات والإيديولوجيات، تثبت إيديولوجية معينة على الأقل، هي إيديولوجية الاقتصاد. ولقد تخلصت منذ أمد طويل من طابع العلم الجاف، ومن النشاط العقلي الصارم، لتغدو آخر عقيدة روحية للعالم النامي.

إنها إذ تغوص في الفراغ القيمي، لا تنمو فقط على حطام الأنظمة الشمولية والمجال السياسي الكامل، بل أصبحت ترنو لإعادة بناء شامل للمجتمعات البشرية، إلى حد أن تسمو إلى مستوى المبدأ المطلق للفعل الإنساني.

إنها دين متقشف، دون اندفاعات خاصة، لكنه يؤجج حماساً قريباً من الشعائر التعبدية من خلال أساليبه ومسلكياته الدقيقة.

فعلى عكس عبارة ماركس المشهورة، لم تجمد مياه الحسابات الأنانية بل صارت تغلي.

فالإيمان لا يكون أبداً خطيراً إلا في عهود الشك، عندما يستحوذ العقل المضطرب على أول موضع بحثاً عن الحماس المفقود. وفي هذه الفورة، يستأثر التيار المعادي للرأسمالية المتجدد هذه الأيام بكامل الغنيمة: فهو القداس الشيطاني في ممارسة طقوسية يشارك فيها حتى من يريد تقويضها.

لقد ارتدى كل مسوح التقوى لطرد الأرواح الشريرة، حتى ولو كانت تقوى سلبية. فإذا كان الصنم يسعد بعضهم، ويثير نقمة بعضهم الآخر، إلا أنه يظل صنماً.

فالبورصة في المشهد العدمي المتأرجح بين هبوط وصعود أصبحت هي فانوس القدر، تتوقف رحمتنا وعذابنا على صعود أو هبوط مؤشراتها.

وقد بدا لي أن هذه العباءة هي ما يجب التحرر منه. فحتى ولو كنت سأعرض نفسي لصواعق الخبراء من كل جانب، فإنني أتدخل هنا كمتطفل يكتب لغير المختصين في موضوع يعاني عادة من احتكار وتقديس مبالغ بهما.

والحق يقال: إن مهنة الاقتصادي قاسية! أقسى من أي مهنة أخرى، لأنها يجب أن تخضع دوماً لإلزامية البرهان.

فتوقعاتها حتى ولو كانت قابلة للتحقق في أدق التفاصيل، إلا أنها لا تزيد صدقية عن توقعات الرصد الجوي أو أبراج الحظ.

ومع ذلك، فعلى أساس هذه التوقعات تبنى سياسات كاملة، وتصاغ البرامج. فقليلاً ما نجد مهنة تتراكم فيها كل هذه الأخطاء والأغلاط دون أي عقاب.

يتوجب علينا في ما وراء إرادة العدالة الاجتماعية والمساواة التي تحرك أطيب المحتجين قلباً أن نتخلص من ميثولوجيا الرأسمالية التي تلتقي فيها كل الاتجاهات.

فها هو هذا الاتجاه الأخير (أي الاتجاه الاقتصادي) يفقد هالته السحرية، ربما من جراء انتصاره. إنه في طريقه للابتذال، إن لم يكن قريباً من الهلاك أو الاستبدال بأمر آخر.

لقد كان من المؤمل أن يخلصنا الاقتصاد من الحاجة فمن يخلصنا من الاقتصاد؟